المنشأ الفكري للزوايا ودورها الريادي في الحفاظ على اللغة العربية وعلومها في ليبيا

د . محمد امحمد بن طاهر
جامعة 7 أكتوبر

1ـ مقدمة

حاولت في هذه الدراسة أن أقتصر على الأسس والأصول الفكرية ، التي نشأت عليها الزوايا ، ولما قامت به في ليبيا ، وكذلك الدعوة إلى إعادة قراءة هذا التراث ، في ضوء المناهج الموضوعة ، فعلم المناهج : هو العلم بالأسس والأصول ، وإن دراسة لا تنحو هذا المنحى لا جدوى منها .

وفي معرض حديثي عن هذه الزوايا ، الذي لن يكون وصفا لما هي عليه الآن ، بل لما كانت عليه خلال فترة زمنية ، تراوحت ما بين عقد الثلاثينات وعقد السبعينات ، لما لهذه الفترة من أهمية بالغة في حياة هذا الشعب المسلم ، وعليه ، فحديثي سيقتصر على هذا المنحى ، اللهم إلا عندما تقتضي الضرورة غير ذلك ، أو عند الاستشهاد بما يطابق مقتضى الحال ، وكذلك لن يكون الحديث حديثا تفصيليا وصفيا لما عليه الزاوية ، وما تحوي من غرف ومرافق ؛ لأن ما أود التركيز عليه في هذا العمل ، الجانب التوعوي والتثقيفي ، وما كان عليه الحال فيما يتعلق بحلقات الدروس العلمية ، التي في معظمها كانت دروسا تتعلق باللغة العربية ، وبالقرآن الكريم ، وبتعاليم الإسلام وبالوعظ والإرشاد ، وكذلك بما يجب على الإنسان الانتباه إليه فيما يخص الضروريات ، إلى جانب أن الزوايا ، وفي أحايين عدة ، كانت ملتقى المريدين وأتباع الطرق الصوفية

المختلفة التي كانت منتشرة ، ولا زالت في مشارق البلاد ومغاربها .

وفي ثنايا هذا العمل سيتم التركيز على ما قامت به الزوايا تجاه هذا الشعب ، فقد كان لها نصيب ، وحظ وافر في إذكاء روح النضال ضد غاصب الأرض ، والمعتدي على الحرمات . ولقد قامت هذه المراكز بما أنيط بها على أكمل وجه وأتمه ، حفظ الطـلاب القرآن ودرسوا علومه ، وحرصوا على علوم العربية ، وأجادوا فن الإعراب ، وكانت هذه المراكزمنارات يؤمها المريدون من جميع أصقاع القـارة الأفريقيـة ، يـأتون لينهلـوا مـن علوم الدين ولغة الدين ، ورغبة في توثيق الروابط مع البلاد الإسلامية ، فقد فتحـت هـذه الزوايا أبوابها للقادمين من جميع أصقاع المعمورة .

وحرصا من هذه المؤسسات الاجتماعيـة علـى نـشر الـوعي الـديني بـين أفـراد المجتمع ، فقد أسهمت هذه الزوايا في محاربـة العـادات والتقاليـد الـضارة ، والمخالفـة لتعاليم الشريعة السمحة ، ومن هنا حظيت هذه الزوايا بشهرة كبيرة بين أبناء المجتمـع ، فحرص الناس على الارتباط بهـا والانتـساب إليهـا والتعلـق منهـا بـسبيل . هـذه الزوايـا على مختلف مواقعها وتفاوت إمكاناتها ، كان لها فضل عظيم في الحفـاظ علـى سـلامة القـرآن الكـريم وقراءتـه ، ودراسـة مختلـف العلـوم والفنـون ، ونـشر الثقافـة والمعرفـة الإسلامية بين أبناء هذا الشعب ، وكانت مراكز إشعاع يؤمها من أراد أن ينـال حظـا مـن علم .

وعلى الجملة ، فإن حديثي عن الزوايا ودورها الريادي في المحافظة علـى علـوم العربية من الاندثار بل ربمـا الـضياع ، سيقتـضى مـني استحـضار الـشواهد ، ومـن هنـا والحال كما لا يخفى علـى المهـتمين ، أن عـدد الزوايـا في الـوطن كـبير ، وعليـه فلـن يكون ممكنا ذكرها جميعا ، وبالتالي سـيكون حـديثي انتقائيـا مركـزا علـى أكثـر هـذه الزوايا شهرة ، وكذلك عن الدور التي أنيط بهذه الربط في حماية الإسلام وفي الذود عـن حياضه ، وذلك حين دعا داعي الجهاد ، وفيما يخص هذه الناحية من هذا العمل سأورد بعضا مما خطه يراع الشيخ الطيب المصراتي [1] في معرض وصفه للزوايـا الـتي زارهـا

(1) الطيب بن عثمان بن محمد بن طاهر المشهور بـ (المصراتي) . عالم وواعظ وداعية ، ولد بمدينة مصراتة ، حفظ القرآن الكريم بزاوية البى ، على يد الشيخ على بن منتصر ، ثم درس بزاوية الشيخ عبد السلام ، ومن بعد عين مدرسا بزاوية المحجوب ، ثم بزاوية الشيخ ، نال الشهادة العالمية(الدكتوراه) في الشريعة الإسلامية . تقلد العديد من المناصب الإدارية والعلمية ، توفي بمسقط رأسه مدينة مصراتة ، ودفن بمقبرة أجداده بقرية الطواهر عام 1998 .

أيام كان مديرا للوعظ والإرشاد ، أو أيام أن كان طالبا ، أو أستاذا .

غير أنني أحب أن أنبه على حقيقة أساسية ، وهي أنني لا أبغي بالحديث عن الزوايا وعن دورها الريادي في الدعوة إلى الله ، وفي الحفاظ على كتابه الكريم ، وعلى لغة ذلك الكتاب ، مجرد المعرفة الثقافية ، كلا فأنا لا أهدف إلى مجرد المعرفة التي لا حراك فيها ولا حياة ، وأنا أشارك في إلقاء الضوء على دور الزوايا الريادي ، أبغي أن تستحيل هذه المعرفة بأصل النشأة وجذور المقصد ـ أن تستحيل إلى قوة دافعة ، بعيدا عما شابها من أمور . أبغي استجابة الضمير المسلم ، لتحقيق الغاية من الوجود ، وفهم حق التكريم وما يترتب عليه من واجبات خاصة وعامة ، ويراودني أمل كبير في أن هذه المنارات ستتمكن يوما ، من أن تمارس دورها الطبيعي ، في إرشاد البشرية ، وتعود بالناس إلى طريق النجاة ، طريق لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وكلمة أخرى حول هذا العمل ، والمنهج الذي توخيته فيه ، هو أنني لم استحضر أمامي انحرافا معينا من انحرافات الفكر ، بحيث يصبح الرد هو المحرك لما أبذله من جهد؛ إنما أحاول تقرير حقائق التصور الذي ارتضيته حول منشأ الزاوية ودورها الريادي في الحفاظ على القرآن الكريم وعلى اللغة العربية .

ذلك أن استحضار انحراف معين ، أو نقص معين ، والاستغراق في دفعه ، منهج خطير ، وله عقابيله في إنشاء انحراف جديد في التصور الإسلامي ، لدفع انحراف قديم ، والانحراف انحراف على كل حال .

ولقد حاولت من خلال هذا التصور الذي يبين الدور الريادي لهذه المؤسسات الاجتماعية ـ أن أثبت عددا من هذه الزوايا ، غير متعمد الإهمال ، ولا التخصيص ، معتمدا في ذلك على أشتات مجتمعات ، ما بين مخطوط ، وما بين تلق بالمشافهة من أفواه علماء ، كان لهم اهتمام بهذه الدور العلمية ، وبالتالي فإن كثيرا مما يتعلق بهذا المنحى ، كان مصدره هذه الأشتات المجتمعة ، وليعذرني من له علم أشمل ودراية أوسع بهذه المعالم ، فأنا لا أعرف عنها الكثير ، وإن كنت زرت ودرست ببعضها ، وعملت في عدد منها ، خاصة بعد أن أصبحت منارات أو جامعات . فعلى سبيل المثال : حفظت القرآن بزاوية المدني بمصراتة ، ودرست المراحل التي تلت تحصيل القرآن بزاوية القويري بمصراتة ، وزاوية الشيخ أحمد الزروق كانت على مقربة مني ، وكذلك كان لي نصيب في أن أكون قريبا من زاويا المنطقة الشرقية ، زمن التحصيل الجامعي بكلية اللغة العربية ، وبعد الحصول على شهادة التخصص الدقيق ، وفقت في

أن أكون من بين أساتذة الجامعة الأسمرية ، (زاوية الشيخ سابقا) ، وأستاذا بكلية الشريعة بمدينة مسلاتة (زاوية الدوكالي سابقا) .

إلى جانب هذه الروافد جميعا ، كان الاهتمام الشخصي ، بما يجب فعله تجاه هذه المراكز الإشعاعية ، التي أدت دورا رائدا في الحفاظ على هوية هذا الوطن ، وفي غرس الفضائل لدى الأجيال المتعاقبة ، التي كان لها الحظ في أن تنسب إليها .

2ـ ظاهرة انبثاق الزاوية

بتصور فريد من نوعه ، استمد من القرآن الكريم ، تكيفت الجماعات المسلمة في هذه الربط تكيفا فريدا ، وتسلمت قيادة المجتمع الذي يحيط بها ، وكان القرآن الكريم هو المرجع الأول لتلك الجماعات ، فمنه انبثقت هي ذاتها ، وكانت من بين الأعاجيب في الثبات على المبادئ ، وفي غرس هذه المبادئ لدى الناشئة ، وفي تحسيس هؤلاء وتعريفهم بماهية الإيمان ، ولقد احتكت هذه الدعوات الأصيلة ، بألوان الحياة الأخرى ، في هذه البلاد .

انبثقت هذه الدعاوى على أيدي جماعة من علماء المسلمين ، والصالحين من أفراد هذا المجتمع ، ومن الذين آمنوا بحتمية مواجهة الانحراف ، وبضرورة الرجوع إلى أول العهد ، واستقراء سير الجهاد والمجاهدين من السابقين الأولين ، وبالرجوع أولا وأخيرا إلى القرآن الكريم ، يستمدون منه مباشرةً مقومات المجتمع المسلم ، مع بيان خصائص هذا المجتمع ، الذي تفرد من بين سائر المجتمعات الإنسانية .

ولعل مما يجب ذكره في هذا الصدد ، أن أول من انبثقت عنهم فكرة إنشاء هذه المعاقل العلمية ، والدعوية ، كان لهم منهج فيما ارتأوه ، هذا المنهج يتلخص فيما أزعم في النقاط الآتية :

الأولى : أنهم عنوا بفهم وشرح حقيقة ما وصل إلى العالم الإسلامي من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي ، وبالتالي توضيح هذه المخلفات ، وأنها لا تعدو أن تكون شروحا متأخرة للفلسفة الإغريقية ، وأنها كتبت بلغة سقيمة ، ونقلت نقلا مشوها .

الثانية : بينوا للناس شروح هذه الفلسفات ، وإيغالها في السذاجة ، وعدم استقامتها على نظام فكري واحد ، وأساس منهجي مفهوم؛ لأنها في حقيقة أمرها نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير ، وفي ذات الوقت أكدوا صحة النظرة الإسلامية لمختلف

القضايا ، وكيفية معالجة ما يستجد .

الثالثة : عالجوا المشكلات الواقعية في العالم الإسلامي بما يقتضيه واقع الحال ، وبما يتفق ويتوافق مع معطيات التعاليم الإسلامية السمحة ، وخاطبوا الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص ، الذي يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها؛ لأن الوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله ، والعقل الإنساني أثر من آثار الله أيضا ، وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ، فلم تكن دعواتهم ولا أماكن هذه الدعوات معاقل فتن وتدبير مكائد ، وإشعال نيران بين الناس ، وإنما كان همها إعداد ، وإيقاظ الهمم ، ومناهضة المتربصين بمصير الأمة الإسلامية ، وذلك واضح وجلي فيما نرى ونسمع ، وفيما بين أيدينا من وثائق .

3ـ الزاوية والذكر الحكيم

اعتمدت هذه المؤسسات العلمية في مبدأ نشأتها في الدرجة الأولى على نصوص الكتاب الكريم ، باعتبار أن السنة ليست شيئا آخر سوى الثمرة الكاملة والنموذجية للتوجيه القرآني ، كما أشارت إلى ذلك سيدة بيت النبوة وأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي تسأل عن خلق رسول الله ﷺ فتجيب تلك الإجابة الجامعة : « كان خلقه القرآن » . [1] فلم تكن الزاوية في حقيقة أمرها ، بعيدة عن الحياة في ظل القرآن الكريم ، ولا نائية عن ملابسة الأحداث والمقومات ، بل كان القرآن مدركا ، ونموذجا موحيا .

لقد فهم رواد هذه المراكز الإشعاعية ، وأدركوا مدلولات هذا الكتاب الحكيم وإيحاءاته ـ وإدراك هذه الدلالات والإيحاءات ، ليست هي فهم عبارات وألفاظ هذا الكتاب ، أو تفسير محكمه ـ الأمر في حقيقته مخالف تماما؛ إنما تمثل فهمهم إياه في ذلك الاستعداد النفسي ، الزاخر بالمشاعر والتجارب ، كالتي صاحبت نزوله ، وصاحبت حياة الجماعة الأولى التي تلقته بقلب مطمئن ، ونفس راضية ، تلقته وهي تعلم علم اليقين ما يحيكه ويدبره مناهضو هذه الدعوة ، التي يعاني المؤمنون بها جهاد النفس وجهاد الناس ، جهاد الشهوات وجهاد الأعداء ، والبذل والتضحية ، والخوف والرجاء ، والضعف والقوة .

---

(1) أخرجه النسائي .

هذه الربط وهي تنهض بحمل التوعية ، ونشر الوعي الـديني بـين أفـراد الجماعـة المسلمة ، عانت جو النشأة الأولى للمجتمع المسلم؛ بما كان فيه من كيد ونفاق ، وتنظيم وإرساء دعائم دولة ، عانت كذلك الاحتكاك المباشر بين المشاعر والمـصالح والمبـادئ في ثنايا الاستعداد لما هو قادم ، وقراءة ما سيكون عليه الحال .

لقد كانت كلمات الله وعبـارات كتابـه المبـارك بـدلالاتها وإيحاءاتهـا الواضـحة ، النبراس الذي أضاء السبيل أمام الـسالكين ، الـذي مكـن المريـدين مـن اسـتئناف الحيـاة الإسلامية من جديد .

عنايـة الله تعـالى قـادتهم إلى وعـي وحقيقـة قولـه لهـم : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . (1)

أدركوا حقيقة قول الله لهم : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ . (2)

في دعوتهم هذه استحضروا خطاب الله تعالى للسابقين الأولـين مـن المهـاجرين والأنصار ، الذين حملوا أعباء الدعوة ، الذين أدركـوا مـا دعـاهم إليـه الـصادق الأمـين ، فكانوا قادة الجهاد ، وجهابذة الـدعاة ، وأنـصار المستـضعفين . هـم في دعـوتهم وجهـوا الناس إلى فهم ماهيـة الحيـاة ، وإلى تقـديم حقـائق التـصور الإسـلامي للكـون والحيـاة والإنسان ، وذلك من خلال النصوص القرآنية ، مصحوبة بمـا يوضـح معالمهـا ، وينفـى الشبهات عنها ، ويؤكد شرح ما تشابه منها .

وفي تتبع هؤلاء الدعاة لمـنهج الإسـلام في الـدعوة ، كـانوا علـى هـدى الرسـل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من لدن نوح إلى محمد ﷺ ، الذين بينوا للناس حقيقة ، وطبيعـة

(1) الأنفال . 24 ـ 26 .
(2) آل عمران . 139 ـ 143 .

الكون ونظامه ، وأنه لا يضمن الاستقرار لهذا الكون ، ولا لمن كرمه الله ليكون خليفته ، إلا عقيدة تفسر له ما حوله ، وتفسر له مكانه فيما حوله .

4ـ الزوايا والحفاظ على اللغة العربية

أدرك الذين كان لهم الفضل في إرساء دعائم هذه المثابات العلمية ، أن للغة أهمية كبرى « في نشوء الأمم ، فهي أداة التفاعل بين أفراد المجتمع ، والرابطة التي تصهر أبناءه في بوتقة المحبة واللقاء والتفاهم ، وهي مستودع تراث الأمة ، وجسر العبور من الماضي إلى الحاضر ، ثم من الحاضر إلى المستقبل ، فهي الخيط الذي ينقل تراث الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد» . (1)

ومن هذه الناحية ، ومن أن الفرد الصالح ، هو الأساس لكل مجتمع سليم ، كانت هذه النظرة الثاقبة لرواد الفكر ممن كان لهم السبق في إرساء قواعد هذه المراكز ، وذلك استجابة لتعاليم الإسلام التي تحث على الاهتمام بتربية الفرد ذكرا كان أم أنثى ، وجعله مسئولا عن نفسه أمام الله ، ولذلك كان التعليم وطلب العلم من أولويات ما فرضه الإسلام على المؤمنين بهديه . والزوايا ، إيمانا من القائمين على شئونها ، اهتدت إلى أنها مسئولة على نشر التعليم بين أفراد المجتمع ، وأن هذا التعليم يجب أن يوجه توجيها سليما ، بما يحقق حاجة الأمة في كل علم وفن ، وأن يكون ما يدرس في حلقات الدروس حول أساطينها مما يساعد الناشئة المحافظة على هويتها ، وعلى مقومات كيانها ، وبذلك تضمن لهم اكتمال الشخصية ووحدة الاتجاه العام ، وهذا عين ما قامت به هذه المؤسسات الخيرة ، فقد كانت حلقات الدروس تغص بطلابها ، وكان أبرز ما يدرس هو : علوم اللغة العربية المختلفة ، كالنحو والصرف والبلاغة ، وكذلك كل ما كانت علوم اللغة العربية الأساس في فهم توجيهاته ، كعلوم التفسير والحديث والمنطق ، وعلوم الفقه وأصوله . وانطلاقا من المبدأ العلمي الذي كان سائدا ، وهو أن من يريد أن يتصدر للدرس ، يجب عليه أن يعد نفسه في علوم العربية أولا وأخيرا ، حتى عدوا أن من يريد أن يشتغل بعلوم التفسير أو الحديث ، وكذلك علوم الفقه؛ عليه أن يتقن علوم اللغة العربية ، ثم من بعد يكون بإمكانه مواصلة مسيرته العلمية ، وهذا ما اعتمدته هذه الزوايا ، في تربية منتسبيها ، وهي سنة حميدة أحيتها هذه الدور العلمية؛ لأن من مبدأ الإسلام أن لا تكون المساجد والزوايا التي هي مساجد وإن

(1) محمود السيد . في قضايا اللغة التربوية . دار القلم . بيروت ، لبنان . ص ، 7 .

خصت بهذا المصطلح لأداء العبادة فقط . ففي صحيح البخاري عن أبي واقد الليثي قـال : « بينا رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فوقفا علـى رسـول الله ﷺ فـرأى أحـدهما فرجـة في الحلقـة فجلـس ، وجلـس الآخـر خلفهم» . (1)

وعليه فالزوايا بعملها هذا ، أحيت سنة مـن سـنن الـنبي ﷺ ولم يكـن مـا قامـت به من الحرص الشديد على درس اللغة العربية وعلومها ، نشازا أو بدعا من العمـل؛ لأن هذا عين ما كان متبعا زمن تنـوع العلـوم ، خاصـة في العـصر العباسـي ، فقـد تنوعـت بتنوعها حلقات الدروس التي كانت تقام بالمساجد ، ومن أهمها دروس النحو والـصرف والبلاغة .

وما أتصوره في هذا العمل ، كـان واقعـا معاشـا ، تـضافرت فيـه جهـود كـثيرة ، عملت على تحقيق أمنية أن يتعلم أبناء المسلمين في هذا الجزء من أرض الإسلام اللغـة العربية ، بحيث إن تحدثوا ، تحدثوا بها صحيحة ، وإن كتبوا ، كتبوا بها مستقيمة . لكـن السؤال الذي يمثل أمامي هو : هـل تحققـت هـذه الأمنيـة؟ أسـتطيع القـول جازمـا ، إن الزوايا بما قامت به من أعمال ، حيال هذا الموضوع ، كانت جليلة وكانت رائدة ، ولقـد آتت أكلها ، وبرز من بين من كانوا من بين طلابها الكثير ، ممن أسهم في بناء صرح هذا المجتمع باللسان والحسام ، وممن لا يزال يسهم ويعطي .

وعلى الجملة فالمأثور فيما قامت به الزوايـا خدمـة لهـذا المجتمـع ، يـبين مـدى ارتباط المسلم بدور العبادة ، فهي الواسطة بين الدنيا والآخرة ، وهي المكان الـذي يـتعلم فيه تدريب لسانه ، وتقويم بيانه ، وهي كذلك أهم معهد للثقافة في الإسلام .

5ـ دور الزاوية التوعوي

إن الدور التوعوي الذي حملته هذه الربط ، ليس بالهين ، ولا مـن الـسهل أن أفيَـه حقه بما سأحبر من بياض في هذه العجالة ، غير أني سأثير بعض ما أسـهمت فيـه هـذه الزوايا ، من خلال الإعداد الجيد لمنتسبيها ، من أجل أن يكون لهم دور فاعل في توجيه المجتمع ، والأخذ بيده في شتى المناحي العامة والخاصة .

فمن بين الأدوار الريادية الـتي تحملـت شـؤونها ، ونهـضت بتبعاتهـا علـى أكمـل

(1) أحمد أمين . ضحى الإسلام . 1935 . دار الكتاب العربي . بيروت ـ لبنان . ص ، 52 .

وجه ، ذلك الدور البارز في تمهيد السبيل أمام تناول القضايا الاجتماعية على أعواد المنابر ، وذلك عبر من وفق من منتسبيها إلى إكمال دراسته ، وزيادة تحصيله العلمي؛ فكثير من هؤلاء رجع وهو يحمل فكرا ناضجا ، ومن ثم قام بدور جلي في تغيير النمط السائد الذي كان معتادا ، فيما يلقى من خطب ، خاصة خطب الجمعة التي لم تكن تعدو تلك : « الخطب المنبرية المؤلفة في عهد السلاطين » . (1)

والحق أن كل من درس تاريخ هذه الزوايا ، أو كانت له علاقة ما بما كانت عليه ، وما أدته في سبيل صيانة هذا المجتمع من ألوان الزيغ ، والانحراف عن الجادة ، يدرك أن هذه الأمة لا تزال تردد أنفاسها ، بل لا تزال زاخرة الوجدان بعواطف الخير ومعاني الحياة ، كأن لم تكن فيها كل تلك الضربات الموجعة ، وكأن لم تكن عليها كل تلك المؤامرات الرهيبة التي امتلأ بها تاريخها .

يمكنني القول في هذه العجالة وباقتضاب شديد إن هذه المؤسسات الأهلية كانت من بين ما تعرض له أفراد هذه الأمة في هذه البقعة من أرض الله من دواءٍ ، وكانت سندا وملاذا احتمى به أبناء هذا الوطن ، وساعدهم على أن يكون لهم صوت مسموع ، وإن كان خافتا . على أن الذي أخشاه على هذا الدور الرائد ، الذي أجسد بعض آثاره في هذا العمل ، هو أن تتغلب بعض المؤثرات السلبية ، على واقعنا المعاش ، وأن تنحرف الدعوة ، ويقتحم على المسلمين ما يشوه عقولهم ، حتى لا يتمكنوا من مرأى المعالم ، وبالتالي تختلط السبل ، وتنعدم المقاييس ، ولا يعرف الضار من النافع ، ولا الخبيث من الطيب ، فتكون النتيجة ـ والعياذ بالله ـ تشويشاً في التفكير قد يصل إلى حد الحيرة أو الضلال والإلحاد .

لا نريد لهذه المثابات أن تقضي على مقومات الإنسان ، ولا نريد لها أن تمكن بعض المرابين المستنفعين ، مما يعانيه الكثير من حيرة وشرود ، ولا نريد لها أن تشارك في الهتاف بالمزيد من الصرع والتخبط والدوار .

6ـ الزوايا والدور النضالي

الإنسان مفطور على حب وطنه وديار ، وهذا في أنفس الناس عاطفة حقيقية ، إلا أن الخطر في ذلك أن تتغلب هذه العاطفة على حب الله ، الذي أمر الله ورسوله بأن

(1) أحمد نصر ، أحمد الفورتية . معهد القويري الديني إضاءة الخمسينات في مصراته : 1999 . ص ، 142 .

تكون هي العاطفة الأولى ، وإلى أن تصبح المقدسات حدود الوطن ومصالحه ، وأن يجعل المسلمون حدود الله وحرماته ومكارم الأخلاق في ذاتها حيث كانت ، والزوايا في أصل دعوتها لم تغفل هذا الجانب المهم في حياة الفرد والجماعة داخل المجتمع المسلم ، وبأن ثورة المسلم يجب دائما أن تكون ثورة لله والحق ، وليست هبة على غير هدى ، وأن الله تعالى حين نزل قرآنا وبعث نبيا ، إنما أراد أن يرسم لمن أراد تكريمه وخلافته في أرضه إتباع قواعد البناء التي رسمها الله بنفسه . قال تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (1) ، فالله تعالى بهذا قرر أصول الكفاح لعباده في هذه الأرض الذي أناط بهم إعمارها .

وأنا أحاول في هذا البيان عرض القواعد التي تقوم عليها حركة الدعوة التي كانت الزوايا الإسلامية من بين طلائعها ، التي امتحن رجالها في كثير من المواقف ـ أرى أنه من الضروري أن تكون هناك إشارة إلى الدور البارز الذي قام به رواد هذه الزوايا ، في إنارة السبيل أمام عامة أفراد المجتمع ، وفي إعلامهم ضرورة رفع راية الجهاد ، والانتصار للحق ، ووجوب التصدي للظالم الطامع ، انطلاقا من أن الإسلام في حقيقته وفي صميمه دعوة تحررية ، تشمل كل جوانب الحياة الإنسانية .

ومن الجدير بالذكر أن استعرض شيئا مما قامت به الزوايا ، وذلك فيما يخص مقاومة المحتل ، فلقد أسهمت هذه الزوايا في قيادة الحملة الجهادية ضد الغزاة ، وذلك من خلال التوعية ، وإعداد الكثير من القادة الميدانيين الذين شرفوا هذه البلاد ، وذلك بما قاموا من أعمال بطولية في الدفاع عن الأرض والعرض ، ودحر جحافل الغزو الأوروبي .

والمعلوم أن الدعوات التي كانت تصدر عن هذه الزوايا ، كانت بعيدة عن وسائل العنف وتدبير المكائد ، وإشعال نيران الفتن؛ لأنها كانت دعوات هداية وعلم وإيقاظ ، ولكن مما لا شك فيه ، أن انتشار هذه الرسالة بين المسلمين كان له الأثر الفعال في كل مكان وصلته ، وفي إيقاظ المسلمين من غفلتهم ، وفي وجوب اتحاد صفوفهم ، وعدم إقرار الظلم ، وأنه يجب على المسلم أن لا يظل ساكنا يسام بميسم الظلم ولا يحرك ساكنا ، ومن هنا أعتقد أن الدعوات الجهادية ، لم تعد أن تكون استنهاض همم وبعث وعي ، وشعورا بالذات ، وعليه فقد كانت المقاومة ومقارعة البغي والطغيان ،

(1) سورة الجاثية . آية:17 .

والاستشهاد في سبيل الوصول إلى تحقيق الذات .

7 ـ الزوايا والتوجيهات الروحية

الإسلام بنظامه الشامل ، شرع الله فيه عدلا كاملا ، فيه تم تكريم الإنسان ورفع روحه ، وفيه أخذ بمبادئ أخلاقية مثالية ، لا يغفل أثر الواقعيات المادية في حياة البشر ، وما لها من سلطان على الأفراد والجماعات ، وشرائعه ضمنت مزاجا متناسقا من المعنويات والماديات ، ومن التوجيهات الروحية والضمانات القانونية .

والإسلام بتعاليمه السمحة ، ليس مجرد ديانة ، كما يفهمه الغرب من دلالة مصطلح (Religion) ، إنما هو منهاج حياة ، تكفلت شرائعه بالحياة الكريمة للناس كافة ، « التي تصل بهم إلى أعلى درجات الرقي والكمال » ، [1] ولم يكن في هذه الرسالة ما ينافي الطبيعة البشرية ، أو ما يخص جنسا بعينه ، وليس فيها ما يصعب على الإنسان اعتقاده ، أو يشق عليه العمل به ، قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ . [2]

والإسلام بما تضمنه من شرائع وتعاليم ، جاءت ملائمة للزمان والمكان ، فلا تختلف العقائد باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وكل ذلك جاء مفصلا تفصيلا كاملا ، وموضحا توضيحا كاملا ، فلا مجال لمتزيد ، ولا سبيل لمزايدة من أي نوع ، وكل ما في الإسلام من تعاليم ، إنما يقصد به مراعاة مقاصد الشرع ، وما يحفظ كرامة الإنسان ويبعده عن الارتكاس ، والزيغ عن شرع الله ، وفي ذات الوقت فإن فيها ما يناسب الفطرة ، ويساير العقل ، ويجاري التطور . قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . [3]

والزوايا ، كما سبق أن أشرت تحت بند انبثاق الظاهرة ، كانت خالصة الدعوة ، تسير على هدي صاحب الدعوة الأولى ، تلك الدعوة التي عصم الله تعالى صاحبها ، ونزهه عن كل منقصة ، فهو الكامل صاحب الشرع الكامل ، إلا أن ما اعترى الأمة الإسلامية من وهن ، وما خالط عقول كثير من أبنائها من وهم ، كان السبب الرئيس وراء

(1) السيد سابق . فقه السنة . 2000 . دار الفتح للإعلام العربي . القاهرة . ص ، 5 .
(2) سورة البقرة . آية . 185 .
(3) سورة الأعرف . آية . 156 .

عديد الارتكاسات ، وما لا يحصى من المزالق ، كلها كانت نتيجة فهم خاطئ لتعاليم التشريع السماوي ، مما انتهى به إلى هوة سحيقة ، وإلى ما يقرب من الدجل ، كل ذلك باسم الإسلام ، والإسلام من جميع ذلك براء .

وعليه فنحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام؛ لأن تشريعاته قائمة وكاملة ، أما الذي نحتاج إليه فعلا ، فهو تصحيح موقفنا من هذه التعاليم الربانية ، وذلك بمراجعة أنفسنا ، والنظر إلى مسببات تخلفنا ، وبكلمة واحدة : إصلاح ذات بيننا . « إن الإسلام ـ كمؤسسة روحية واجتماعية ـ غني عن كل تحسين . وإن كل تغيير في مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته ، وعلى تنظيمه الاجتماعي ، بافتئات من ثقافة أجنبية ـ ولو بإشراف ضئيل ـ سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتما علينا نحن » . (1)

وأنا أقول كما قال غيري ممن آمن بما آمنت به : إن الخسارة لن نعاني منها وحدنا ـ نحن المسلمين خاصة ـ ولكنها ستكون عامة وعلى جميع أفراد المجتمع الإنساني ، بتشويه المصدر الرباني الوحيد الباقي لها .

إن من يحاول زعزعة هذا الركن المكين ، بدعاوى أقل ما يقال عنها إنها لا أساس لها ، فهي تارة باسم التجديد ، وتارة أخرى باسم التخلص من تبعات القرون الوسطى ، أو بتبني أي شعار آخر ، أقول لهم جميعا إنكم أنتم أعداء الإسلام الحقيقيون .

إن ما يتحتم علينا فعله كمسلمين غيورين على معتقدهم ، ومخلصين في إيمانهم ، هو معرفة حدود الواجبات الشرعية ، والإيمان بقيمة الحياة وأهمية كل حركة فيها؛ لأن الحياة هي مضمار العمل ، وأن الإنسان ليس بإمكانه بلوغ درجات الكمال الإنساني إلا في هذه الحياة الدنيا ، وعليه فإنه إن لم يق نفسه ومجتمعه المسلم شر جميع أنواع الملابسات ، فسيكون بذلك أحمق الحمقى .

وليس بعيدا عما نحن بصدده ، يذكر محمد أسد في معرض حديثه عن الإسلام حديثا دقيقا عن الفرق بين التصور الإسلامي والتصورات الأخرى فيقول : « إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص ، كالصلاة والصيام مثلا ،

(1) محمد أسد . الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ . ص ، 109 .

ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضا . وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله ، فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية ، متعددة النواحي ، وهكذا يجب أن تأتي أعمالنا كلها ـ حتى التي تظهر تافهة ـ على أنها عبادات ، وأن نأتيها بوعي ، وعلى أنها تؤلف جزءا من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله . . ، تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد . ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود» . (1)

إن موقف الإسلام في هذا الجانب لا يتجزأ ، ولا يحتمل التأويل ، إذ يعلمنا الله تعالى أن عبادته الدائمة ، المتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها ، هي معنى الحياة نفسها ، ويعلمنا كذلك أن بلوغ هذه الدرجة يظل معلقا ، ما دمنا نقسم حياتنا قسمين : حياة روحية ، وحياة مادية . يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا ، وألا نكون كلا على مولانا ، إن فكرتنا عن الله تعالى يجب أن تتجلى في سعينا التوفيق بين المظاهر المختلفة في حياتنا ، لا أن تظهر في أشكال من الطقوس الرهبانية التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان .

8 ـ أمثلة ونماذج

كما أشرت آنفا ، إن غرضي من ذكر بعض النماذج لا يعدو أن يكون دعما لتصوري الخاص ، حول الدور الريادي الذي قامت به هذه المؤسسات العلمية في شتى مناحي الحياة العامة والخاصة ، وعليه فسأقتصر على ذكر عدد قليل منها ، تاركا الدرس الاستقصائي لمناسبة أخرى ، ولعمل أشمل ، لأن خصوصية ما بين أيدينا من عمل لا تجيز الاسترسال والإطناب؛ ولأن طبيعته كذلك تقتضي الاختصار أولا ، والتركيز على الدور العام الذي قامت به هذه المثابات العلمية ثانيا .

1ـ زاوية الشيخ

أسس هذه الزاوية العالم العارف بالله الشيخ عبد السلام الأسمر سنة (**971** هـ **1563** م) في ناحية زليطن ، ولقد أوقف الشيخ على هذه الزاوية أملاكه وجهوده ، واقتفى سيرته من بعده أولاده وأحفاده .

والغرض من إنشائه لها ، أن تكون مسجدا جامعا ، يؤدي فيه الناس الصلاة ،

(1) المرجع السابق .

ويحفظ الصبيان القرآن الكريم ، ويتلقى الطلبة العلم ، وكان لها الفضل الكبير في تغذية البلاد بالعلماء والوعاظ .

ولقد مرت زاوية الشيخ بتغييرات ، شملت المعمار والنظم الدراسية ، خلال حقب زمنية متعاقبة ، إلا إنها لم تتخل عن دورها الريادي والإشعاعي ، وهي الآن جامعة عالمية يؤمها المريدون من كل أنحاء المعمورة .

وفي هذا الصدد أود تدوين ما حبره يراع أحد أبرز تلاميذ هذه الزاوية ومعلميها ، وهو العالم الشيخ الطيب عثمان بن طاهر (المصراتي) ، الذي قدم وصفا لما كانت عليه الزاوية ، أيام أن كان طالبا بها فقال : « توجد هذه الزاوية ببلد زليتن ، قريبا من سوق البلد ، وتتكون من عدة مبان ، أغلبها غرف وخلاوٍ [1] لسكن الطلبة موزعة على الأسماء التالية : زاوية محمود . . . » [2]

ويستمر الشيخ الطيب في مخطوطه واصفا مباني هذه الزاوية ، ذاكرا أسماء الخلاوي ، محددا الزمن بسنة **1937ـ 1955** ، ثم يذكر النظام الذي كانت عليه الدراسة ، والمواد العلمية التي كانت تدرس بهذه الزاوية ، ويعرض نماذج للإجازات العلمية التي كانت تمنحها هذه الزاوية ، لطلابها ، ومن بين ما ذكره الشيخ تلك المناسبات التي كانت تعقد وتلقى فيها القصائد الشعرية متعددة الإغراض .

2ـ زاوية القويري

وهي من الزوايا الحديثة نسبيا ، إذا ما قورنت بالزوايا القديمة ، مثل زاوية الشيخ ، أو زاوية الزروق ، إلا إنها وفي فترة زمنية تعد قياسية ، فاقت غيرها في استقطاب الطلاب من جميع أنحاء الوطن ، وذلك راجع ، فيما أعتقد ، إلى ارتباطها في مبدأ نشأتها بالأزهر الشريف ، ولا يخفى ما كان يمثله الجامع الأزهر لدى المسلمين في جميع أنحاء المعمورة .

أسس هذه الزاوية المرحوم عبد الله القويري [3] ، بعد انتهاء الاحتلال الإيطالي

(1) جمع(خلوة) وهي عبارة عن غرفة معدة لإقامة الطلاب الدارسين بالزاوية .

(2) نص من مخطوط للشيخ الطيب المصراتي .

(3) هو الحاج عبد الله القويري ، من قبيلة أولاد بعيو ، الذي ينتهي نسبه إلى الشيخ عبد السلام الفيتوري ، من سلالة الحسن بن علي عليهما السلام . ولد الحاج عبد الله القويري سنة 1877 . بمدينة مصراتة ، وتوفي رحمه الله بها يوم 21 ـ 11 ـ 1964 .

للوطن ورجوع الكثير من المهاجرين إلى البلاد ، سنة (**1371** هـ **1951** م) ، وهي تقع بسوق مصراتة ، وكانت في نظامها الدراسي تتبع نظام المعاهد الأزهرية ، وهي : « ثاني معهد أزهري يتم إنشاؤه خارج مصر بعد معهد غزة بفلسطين » . [1]

وكغيرها من الزوايا ، كان الدرس القرآني ، حفظا وتفسيرا ، وكان درس اللغة العربية بعلومها وآدابها ، حاضرا بكل ما تعني الكلمة ، فأساتذة هذه العلوم كانوا ينتقون من بين أفضل الأساتذة في المعاهد الأزهرية بمصر ، ومن ثم يأتون للتعليم بهذا المرفق ، ولقد كانت لي صلة وثيقة بأحدهم ، بعد أن تولى عمادة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، والذي شغل منصب مدير معهد القويري (زاوية القويري) في سبعينات القرن الماضي ، وهو العالم والشاعر : الدكتور سعد عبد المقصود ظلام ، طيب الله ثراه .

وفي ما يخص الجانب التوعوي والوعظي ، قامت هذه الزاوية بدور رائد ، تمثل في استقطاب أبرز الدعاة ، أمثال الشيخ عبد الحميد شاهين [2] ، الذي كان عالما عاملا ، وأستاذا جليلا ، تمتع بشهرة طبقت الآفاق ، وأحاديثه ومواقفه بلغت حدا كبيرا من الشهرة ، ولقد كان لي شرف التلمذة على يديه ، بدار الحديث بجامع أبي رقيبة ، [3] بعد أن انتقل إلى طرابلس ، وقبل وفاته بقليل . ولقد كان لهذه الزاوية دور كبير وبارز في النهوض بعملية التعليم في ذلك الوقت ، حيث تخرج منها الكثير من الطلاب ، والذين برز من بينهم عدد غير قليل . وبعد أن تحولت هذه الزاوية إلى ما سمي بمعهد القويري الديني ، تعاظم دورها الريادي على كل الصعد ، خاصة في الفترة التي كان على رأس إدارتها الشيخ الجليل والمربي الفاضل الشيخ محمد عبد الله جبعور .

3ـ زاوية بن شفيع

تقع هذه الزاوية بمدينة سرت وسط سوقها ، وهي كما وصفها الشيخ الطيب المصراتي أيام أن كان يتلو فيها كتاب الله في ثلاثينات القرن الماضي : « بها عدد من

(1) نقلا عن الأستاذ أحمد نصر مؤلف كتاب معهد القويري الديني إضاءة الخمسينات في مصراته .

(2) عالم وواعظ ، شغل منصب المسئول بمعهد القويري ، وقد كان خطيبا مفوها وواعظا جريئا .

(3) دار الحديث . أسسها الشيخ الطيب المصراتي بجامع أبي رقيبة بمدينة طرابلس من أجل تدريس الحديث النبوي الشريف وعلومه ، في الربع الأول من العقد السابع من القرن الماضي ، غير أن هذه الدار لم تعمر طويلا .

الدور الصغيرة المعروفة بالخلاوي ، وبها مسجد كبير وبعض فصول الدراسة . . . وكـان يوجد بها معلم للقرآن الكريم » [1]

وإلى جانب تعليم القرآن الكريم لأطفال المسلمين ، كان الوعظ والإرشاد ، فكـان الناس يجتمعون ليستمعوا إلى كتاب الله يتلى ، وإلى آياته تفسر ، بمعنى أن هذه الزاوية كانت مسجدا يؤمه الناس لأداء الصلاة ، ويأتيه الراغبون في حفظ كتاب الله ، وملاذا آمنـا يجد فيه المسلم ضالته ، في الاستماع إلى الكلمة الهادفة والتذكرة النافعة ، وإلى كـل مـا يبعث على التمسك بكتاب الله وشرعة نبيه محمـد ﷺ . وقـد أدت هـذه الزاويـة دورهـا التوعوي ، على أكمل وجه وأتمه ، وذلك في مقارعة نوايا المحتل ، وفي إبطـال خططـه الرامية إلى القضاء على كل أساليب التعليم التي ربما يلجأ إليها أهل البلاد .

وفيما يتعلق بهذا الموضوع يذكر الشيخ الطيب المصراتي ـ وقد كان شاهد عيان ـ في معرض حديثه عن زاوية بن شفيع ، فيقول مبينا الدور الذي أدتـه هـذه الزاويـة أسـوة بغيرها من الزوايا الليبية ، وذلك من أجل الوقوف في وجه الغطرسة والاستكبار . يقـول في هذا الصدد : « إن مكر الاحتلال بلغ أقصى مداه بأهـل الـبلاد ، محاولـة منـه القـضاء على القراءة والعلوم الإسلامية ، ولكـن الـبلاد وقفـت في وجهـه بكـل مـا تملـك ، ومـا استطاع أن يبلغ ما يريد بفعل الروح الدينية التي تسود أهل البلاد والحمد لله » . [2]

4ـ زاوية الدوكالي

نسبت هذه الزاوية إلى العالم الجليل ، أسـتاذ العلمـاء العـالم التقـي عبـد الواحـد الدوكالي [3] نزيل مسلاتة ، وضريحه لا يزال بهـذه الزاويـة ، الـتي تقـع بمدينـة مـسلاتة شمال السوق ، وهي من الزوايا القديمة ، « التي اشتهرت بتدريس القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ، وعلوم اللغة العربية ، وقد كان الشيخ عبـد الـسلام الأسمـر ، والـشيخ أحمـد زروق [4] طالبين بها في أواخر القرن التاسع الهجـري ، ومـا زالـت خلوتهمـا الـتي كانـا

(1) نص من مخطوط للشيخ الطيب المصراتي .

(2) المرجع السابق .

(3) جاء في وصية الشيخ عبد السلام الأسمر ما مفاده أن الشيخ عبد الواحد الدوكالي كان أستاذا لكل من الأسمر وزروق . عن مخطوط للشيخ الطيب المصراتي .

(4) الشيخ أحمد زروق البرنسي الفاسي ، أحد أبرز أعلام القرن العاشر الهجري وأحد مجتهدي المذهب المالكي . نزيل مصراتة ، ومقامه لا يزال ، وحوله مسجد كبير ، وبه منارة لتعليم كتاب الله وعلوم الشريعة ، وكذلك يوجد بنفس المكان قسم للدراسات الإسلامية تابع لجامعة مصراتة .

يسكناها باقية تدل على ذلك العهد الطيب» . [1]

وقد كانت هذه الزاوية من أهم الزوايا ، التي أخذ القائمون عليها على عاتقهم ، التفرغ لتحفيظ كتاب الله ، وتدريس علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب ، إلى غير ذلك من العلوم الضرورية . وهي اليوم كلية عامرة ، يدرس طلابها الوافدون والمحليون علوم الشريعة ، وعلوم الحديث وتفسير الذكر الحكيم ، وبها ثلة من العلماء الأجلاء ، يقومون بتدريس علوم الشريعة واللغة العربية ، كما كان أسلافهم يفعلون .

5 ـ زاوية الشيخ حسين

وتقع هذه الزاوية بقصر الأخيار ، وهي من الزوايا الحديثة ، مقارنة بزاوية الشيخ أو زاوية الدوكالي ، كما يفهم مما ذكره الشيخ الطيب المصراتي في إحدى مخطوطاته ، إلا أن دورها كان عظيما . ولنترك الشيخ الطيب يتحدث عن هذا المعلم الرائد ، الذي كان مكانا للعبادة والعلم ، وتوجيه عباد الله إلى ما يفيدهم في دنياهم وفي آخرتهم .

يقول الشيخ الطيب إن الذي أنشأها واشتهرت من بعد باسمه : « كان رجلا فاضلا ، وعالما جليلا ، من أهل الخير والتواضع ، والأخلاق الفاضلة ، الذي كان يدعى بالشيخ حسين بن عبد الله ـ الذي أنشأ بها كذلك مسجدا كبيرا ، وبعض الغرف الدراسية ، وكان ذلك كله بالمجهود الذاتي ، وكان من عادات هذا الشيخ مساعدة الطلاب المهاجرين» . [2]

6 ـ زاوية أحمد باشا

هذه الزاوية تقع على شاطئ مدينة طرابلس ، أنشأها وروافدها والي طرابلس من قبل الخلافة الإسلامية في استانبول ، وقد ذكر الشيخ الطيب في معرض حديثه عن هذه الزاوية أنها : « عرفت زمن الاحتلال الإيطالي بكلية أحمد باشا اطلق عليها هذا الاسم ، يوم أن أراد الاستعمار الإيطالي أن يمنع الناس من الذهاب إلى مصر ، للدراسة بالأزهر ، مضيفا مبنى جديدا ، زوده بالمدرسين ، وجعل له منهجا خاصا ، وكل من يريد الذهاب إلى مصر يقنعه بأن هذه الكلية تغنيه عن ذلك . واستمرت هذه (الكلية) وكانت والحمد لله تؤدي واجبها الوطني والإسلامي ، لا الإيطالي ولا الاستعماري ، وتخرج منها عدد لا بأس به من العلماء ، الذين خدموا هذا المجتمع ، واستفاد الناس منهم كثيرا ، عكس ما

(1) نص من مخطوط للشيخ الطيب المصراتي .
(2) المرجع السابق .

كان يؤمله الاحتلال الإيطالي البغيض» . (1)

وعلى الجملة فإن هذه الزاوية أسوة بغيرها من الزوايا ، عملت على خدمة هذا المجتمع ، وحرصت على الإسهام في تعليم أبنائه ، وتوعيتهم ، والأخذ بأيديهم ، ولا يزال هذا المرفق الطيب يؤدي دوره العلمي على خير وجه في التعليم والتوجيه .

9.خاتمة

أدرك القائمون على شؤون هذه المعاقل العلمية ، ومن الوهلة الأولى ، أنه لا بد للدعوة من لسان ناطق ، يكون حلقة اتصال بينهم وبين طبقات المجتمع ، فكانت هذه المعاقل العلمية ، من أجل أن تسهم في النهضة الدينية ، والثقافية ، وفي الأخذ بأيدي أفراد هذا الشعب ، ومساعدتهم في الخروج من بوتقة الجهل والتخلف ، وتقوية الوعي الديني والأخلاقي ، والاجتماعي والوطني في نفوس أبناء المجتمع .

وفي هذه الإلمامة السريعة بشؤون وشجون هذا الموضوع ، كان التصور محدودا محدودية إنسانيتي ، ومحدودية الزمان والمكان ، فالإنسان عندما يفكر في إنشاء تصور من ذات نفسه ، وان بناه على أسس وأصول واستقراء لحوادث ونصوص ، سيجيء تفكيره محدودا ، ومحكوما بالسمة التي تحكم كينونته كلها ، فوق أن هذا التصور لا يتناول الأمر من جميع زواياه ، ولا يلم به من جميع أطرافه ، وجميع مقوماته وأسبابه .

وإيمانا مني بدور هذه الزوايا لم يكن محصورا أو قاصرا ، على منابر المساجد ودروسها ، كان هذا التصور ، الذي عالجت فيه هذا الدور الذي امتد إلى آفاق أرحب ، وميادين أوسع ، للوصول بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، والمعلومة النافعة ، إلى جميع أوساط وفئات المجتمع ، كل ذلك كان على أساس من الإيمان القوي ، والخلق الكامل ، بما تقتضيه أحوال ومتطلبات الصالح من الأعمال ، على هدي من كتاب الله الكريم ، وسنة رسوله الأمين ، يسيرون على المنهج الذي رسمه القرآن ومن أنزل عليه للدعوة ، متمثلين في ذلك بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . (2)

(1) المرجع السابق .

(2) سورة ، النحل . آية ، 125 .

عملت هذه الربط العلمية وأسهمت في العمل على محو ما علق بالعقائد الإسلامية ، من منكرات البدع ، وضار العادات ، وأدت دورا بارزا في تعليم أبناء المجتمع علوم اللغة العربية ، وحرصت على تنبيههم على الدور الفاعل الذي يؤديه حفظ القرآن الكريم ، وذلك في تثبيت العقيدة ، وفي تصحيح مسارات الحياة المختلفة .

وقد أدت هذه المراكز المباركة واجبها على أكمل وجه ، وكان لجهودها أجمل الأثر ، في كافة الجهات التي حلت بها ، وتقبل أبناء المجتمع دعوة الداعين ، واهتدوا بهدي الدين ، مما يدل دلالة قاطعة على صدق النوايا .

وجهت هذه المثابات العلمية عنايتها إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري ، ومن تم توثيق الصلة ، وتوضيح المسار إلى فضائل الأعمال ، والبعد عن الرذائل والموبقات من الأفعال والأقوال .

وفي أداء الزوايا لهذا العمل الجليل ، واتباع هذا النهج القويم ، ما يستحق الانتباه والتأمل ـ بما يعد تصحيحا لما وقعت فيه الكثير من الدعاوى ، التي لم يكن الإسلام مصدر إلهامها ، وعنوان عملها .

إن جمال المنهج الإسلامي وكماله وتناسقه ، يتجلى من جمال العقيدة الإسلامية ذاتها ، ومن بساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها ، وهذا كله لا يتجلى إلا بعد مراجعة ركام الجاهلية السابقة للإسلام ، وما علق بفهم شريعة الإسلام من انحرافات؛ عندئذ تبدو معالم هذه العقيدة ، وأنها كانت رحمة من عند الله ، رحمة حقيقية للعقل وللقلب ، رحمة بما فيها من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق ، وقرب وأنس ، وتجاوب مع الفطرة ، وصدق الله العظيم : ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ . (1)

وعلى الجملة فإن الرسالة التي أنيطت بهذه المثابات العلمية ، كانت رسالة دينية وثقافية واجتماعية ، وكانت هذه المدارس منتدى يلتقي فيه الخطباء والوعاظ ، والحريصون على تعميم رسالة السماء ، وإيصالها على أكمل وجه إلى مستحقيها .

(1) سورة الملك . آية ، 23 .